1

الطبيعة المتغيرة للقوة

قبل أكثر من أربعة قرون، نصح نيقولو ماكيا فيللي الأمراء في إيطاليا بأن يكون المرء مخوفاً أهم من كونه محبوبا. ولكن الأفضل في عالم اليوم أن يكون المرء مالكاً لهاتين الصفتين معاً. فقد كان كسب القلوب والعقول مهماً على الدوام، ولكن الأهمية أكثر في عصر المعلومات المعولم. فالمعلومات قوة. ثم إن تقنية المعلومات الحديثة آخذة بنشر المعلومات بصورة أوسع مما كانت عليه الحال طوال عصور التاريخ كله. ومع ذلك لم يصرف الزعماء السياسيون وقتاً يذكر للتفكير في كيفية تغيير طبيعة القوة، وبصورة أدق في كيفية دمج الأبعاد الطرية في خططهم الاستراتيجية لاستخدام القوة بنجاح.

ما هي القوة؟

القوة تشبه الطقس، يعتمد عليه ويتحدث عنه كل شخص ولكن لا يفهمه إلا القليلون. ومثلما يحاول المزارعون والعاملون في الأرصاد أن ينبؤوا بالطقس، يحاول الزعماء السياسيون والمحللون أن يصفوا علاقات القوة وينبؤوا بتغييراتها. والقوة تشبه الحب أيضا من حيث إن تجربتها أسهل من تحديدها أو قياسها، غير أن ذلك لا يقلل من كونها شيئاً حقيقياً. والقاموس يقول لنا إن القوة هي القدرة على عمل الأشياء. وعند هذا المستوى الأكثر عمقاً، فإن القوة هي القدرة على

الحصول على النتائج التي يريدها المرء. ويخبرنا القاموس أيضا: أن القوة تعني امتلاك القدرات على التأثير في أسلوب الآخرين لجعل تلك الأشياء تحدث. وهكذا بعبارة أدق فإن القوة هي القدرة على التأثير في سلوك الآخرين للحصول على النتائج التي يتوخاها المرء. ولكن هناك طرقاً عديدة للتأثير في سلوك الآخرين. لن تستطيع إرغامهم بالتهديدات؛ وتستطيع إغراءهم لدفع الأموال، أو تستطيع أن تجتذبهم وتقنعهم بأن يريدوا ما تريد.

ويفكر بعض الناس في القوة بطريقة ضيقة، من حيث إصدار الأوامر والقسر. وأنت تجرب ذلك عندما تستطيع أن تجعل الناس يفعلون ما يفضلون أن لا يفعلوه[1]. فتقول لهم "اقفزوا" فيقفزون. ويبدو هذا اختياراً بسيطاً للقوة ولكن الأشياء ليست مستقيمة كما تبدو لأول وهلة. افرض أن الذين تأمرهم، مثل حفيداتي، يحبون القفز أصلا؟ فعندما نقيس القوة. بمعايير تغيير سلوك الآخرين فإن علينا أن نعرف أولا ما هي الأشياء التي يفضلونها. وإلاّ فسنكون مخطئين في معرفة قوتنا كالديك الذي يظن أن صياحه هو الذي يجعل الشمس تشرق! ومن ثم فقد تتبخر القوة عندما يتغير السياق. فالتلميذ المتمر الذي يُرهِبُ الأطفالَ الآخرين في ساحة المدرسة ويجعلهم يقفزون بأمره يفقد قوته حالما يعود تلاميذ الصف من الفرصة إلى غرفة صفهم المنضبطة بشكل صارم. والدكتاتور القاسي يستطيع أن يسجن أحد المنشقين ويعدمه. ولكن ذلك قد لا يثبت قوته إذا كان المنشق يسعى إلى الفوز بالاستشهاد. فالقوة إذن تعتمد دائما على السياق الذي توجد ضمنه العلاقة[2].

إن المعرفة المسبقة لكيفية تصرف الآخرين في غياب أوامرنا كثيراً ما تكون صعبة. وعلاوة على ذلك، كما سنرى، فإننا نستطيع أحيانا أن

نحصل على النتائج التي نبغيها بالتأثير على السلوك دون أوامر. فإذا كنت تعتقد بأن إهداء أهدافي مشروعة، فإني قد أتمكن من إقناعك بأن تفعل من أجلي شيئا دون أن أستخدم التهديدات أو الإغراءات. فمن الممكن الحصول على كثير من النتائج المرغوبة دون أن تكون للمرء قوة ملموسة كبيرة على الآخرين. وعلى سبيل المثال فإن بعض الكاثوليك المخلصين في ولائهم قد يتبعون تعاليم البابا بشأن عقوبة الإعدام ليس بسبب التهديد بحرمانهم ولكن بدافع احترامهم لسلطته المعنوية أو قد ينجذب بعض المسلمين الأصوليين المتشددين إلى تأييد أعمال أسامة بن لادن ليس بسبب أموال مدفوعة أو تهديدات، بل لإيمانهم بمشروعية أهدافه.

والسياسيون العمليون والناس العاديون كثيرا ما يجدون مسائل السلوك والدوافع هذه معقدة أكثر من اللازم. وهكذا يتجهون إلى تعريف آخر للقوة فيحددونها ببساطة بأنها امتلاك القدرات أو الموارد التي يمكنها أن تؤثر على النتائج. وبناءً على ذلك فإنهم يعتبرون بلداً مّا قوياً إذا كان لديه عدد سكان وإقليم جغرافي كبير نسبياً، وموارد طبيعية واسعة وقوة اقتصادية، وقوة عسكرية، واستقرار اجتماعي. وميزة هذا التعريف الثاني هي أنه يجعل القوة تبدو مادية ملموسة أكثر، وقابلة للقياس، ويمكن التنبؤ بها. ولكن لهذا التعريف مشاكل أيضاً. فعندما يعرف الناس القوة بأنها مرادفة للموارد التي تنتجها فإنهم يواجهون أحياناً مفارقة كون أفضل المتمتعين بالقوة لا يحصلون دائما على النتائج التي يريدونها.

وموارد القوة ليست قابلة للاستبدال كالنقود. فما يكسب في لعبةٍ مّا قد لا يساعد على الإطلاق في لعبة أخرى. فالإمساك بأوراق بوكر رابحة ليس مفيداً إذا كانت اللعبة الجارية هي لعبة البريدج(3). وحتى

إذا كانت اللعبة هي البوكر، فإنك قد تخسر رغم ذلك إذا استعملت أوراقك الرابحة بطريقة سيئة. إن امتلاك موارد القوة لا يضمن أنك ستحصل دائماً على ما تريد. وعلى سبيل المثال، فقد كانت الولايات المتحدة أقوى من فيتنام بكثير في مجال الموارد، ومع ذلك فقد خسرنا حرب فيتنام. وكانت أميركا هي قوة العالم العظمى الوحيدة في عام 2001، ولكنّنا فشلنا في منع 11 أيلول/ سبتمبر.

إن تحويل الموارد إلى قوة متحققة، بمعنى الحصول على النتائج المرغوبة يتطلب خططاً استراتيجيةً جيدةَ التصميم وقيادة بارعة. ومع ذلك فكثيرا ما تكون الاستراتيجيات غير ملائمة، وغالباً ما يسيء القادة الحكم - وتشهد على ذلك اليابان وألمانيا عام 1941 أو صدام حسين عام 1990، فعند أول مقاربة للعبة فإن تخمين مَنْ مِنَ اللاعبين يملك الأوراق الرابحة يساعدك دائماً. غير أن ما يعادل ذلك في الأهمية هو أن تعرف ما هي اللعبة التي تلعبها. فما هي الموارد التي تقدم أفضل أساس لسلوك القوة ضمن سياق معين؟ إن النفط لم يكن مورد قوة مؤثر قبل العصر الصناعي، كما لم يكن اليورانيوم ذا أهمية قبل العصر النووي.

وفي الفترات السابقة، كان تقدير موارد القوة الدولية أسهل. فكان من بين الاختبارات التقليدية لقوة عظمى في السياسة الدولية "قوتها في الحرب"(4). ولكن مع مرور القرون، وتطور التقنيات، تغيرت مصادر القوة في الحرب كثيراً. وعلى سبيل المثال: ففي أوروبا في القرن الثامن عشر، كان السكان مصدراً حساس الأهمية للقوة، لأنهم يقدمون قاعدة للضرائب ولتجنيد المشاة. وعند نهاية الحروب النابليونية عام 1815، قدمت بروسيا لشركائها المنتصرين في مؤتمر فيينا خطة محدودة لإعادة بناء نفسها مع تحويل أرض وسكان إليها للحفاظ على توازن

للقوى ضد فرنسا. وفي فترة ما قبل القوميات، لم يكن مهماً عدد الذين لا يتكلمون اللغة الألمانية في تلك المقاطعات المحوّلة إلى بروسيا. غير أن العواطف الشعبية القومية النزعة تنامت كثيراً في غضون نصف قرن من ذلك التاريخ، بحيث صار استيلاء ألمانيا على الآلزاس واللورين من فرنسا عام 1870 أحد الأسباب الكامنة خلف اندلاع الحرب العالمية الأولى. وبدلاً من أن تكون المقاطعات المنتزعة مصدر قوة، صارت عبئاً ثقيلاً في سياق النزعة القومية المتغيّر. فقبل أن تحكم مَنْ صاحبُ الأوراق الرابحة، فإنك بحاجة إلى معرفة ما هي اللعبة التي تلعبها، وكيف يمكن أن تتغير قيمة الأوراق.

وعلى سبيل المثال، فإن تَوَزُّعَ موارد القوة في عالم المعلومات المعاصر يختلف كثيراً بالنسبة لقضايا مختلفة. فيقال لنا إن الولايات المتحدة هي القوة العظمى الوحيدة في العالم "أحادي القطب". ولكن السياق أعقد بكثير مما يبدو في النظرة الأولى، ذلك أن جدول أعمال السياسة العالمية قد أصبح مثل لعبة الشطرنج ثلاثية الإبعاد لا يستطيع المرء فيها أن يفوز إلاّ إذا لعب بطريقة عمودية وبطريقة أفقية في الوقت نفسه فعلى الرقعة العليا للقضايا العسكرية التقليدية الكلاسيكية بين الدول فإن الولايات المتحدة هي بالفعل القوة العظمى الوحيدة ذات الذراع العسكرية العالمية البعيدة المدى، مما يجعل من المفهوم التحدث عنها من ناحية أحادية القطب والهيمنة. غير أن الرقعة الوسطى الخاصة بالقضايا الاقتصادية بين الدول، فإن توزيع القوة متعدد الأقطاب. فلا تستطيع أميركا أن تحصل على النتائج التي تريدها ضمن موافقة الاتحاد الأوروبي، واليابان، والصين، وغيرها. فلا معنى لتسمية ذلك هيمنة أميركية على الرقعة السفلى الخاصة بالقضايا الانتقالية مثل الإرهاب، والجرائم الدولية، وتغيير المناخ،

وانتشار الأمراض المعدية، تتوزع القوة بشكل واسع وفوضى التنظيم بين الدول والفاعلين من غير الدول. فلا معنى لتسمية هذا عالماً أحادي القطب أو إمبراطورية أميركية - رغم مزاعم مطبلي الدعاية من اليمين واليسار. وهذه هي مجموعة القضايا التي تتدخل الآن في عالم الخطط الاستراتيجية الكبرى. ومع ذلك فإن كثيراً من الزعماء السياسيين يركزون بشكل كلي تقريبا على مصادر القوة من الموجودات العسكرية، وعلى الحلول العسكرية التقليدية الكلاسيكية- أي على رقعة الشطرنج العليا. وبذلك يخطئون في فهم ما هو ضروري ويعتبرونه كافياً. إنهم لاعبو بعد واحدٍ في لعبة ثلاثة أبعاد. وعلى المدى البعيد، فإن هذا هو سبيل الخسارة، ما دام الحصول على النتائج المؤاتية على الرقعة الانتقالية السفلى كثيراً ما يتطلب باستخدام موارد وموجودات القوة الناعمة.

القوة الناعمة

الناس جميعاً يعرفون القوة الصلبة. وكلنا نعلم أن الجبروت العسكري والاقتصادي غالباً ما يجعل الآخرين يغيرون مواقفهم. ويمكن أن تتركز القوة الصلبة على المغريات ("الجزرات") أو على التهديدات ("العصيّ") ولكنك تستطيع أحياناً أن تحصل على النتائج التي تريدها دون أي تهديدات ملموسة أو رشاوى. والطريقة غير المباشرة للحصول على ما تريد تسمى أحياناً "الوجه الثاني للقوة". فقد يتمكن بلدٌ مّا من الحصول على النتائج التي يريدها في السياسة العالمية؛ لأن هناك بلداناً أخرى - معجبة بمثله، وتحذو حذوه، وتتطلع إلى مستواه من الازدهار والانفتاح - تريد أن تتبعه. وبهذا المعنى، فإن من المهم أيضاً وضع جدول الأعمال واجتذاب الآخرين في السياسة العالمية، وليس

فقط لإرغامهم على التغيير بتهديدهم بالقوة العسكرية أو العقوبات الاقتصادية. فهذه القوة الناعمة - جعل الآخرين يريدون ما تريد - تختار الناس بدلاً من إرغامهم[5].

وترتكز القوة الناعمة على القدرة على تشكيل تفضيلات الآخرين. فعلى الصعيد الشخصي، فإننا جميعاً مطلعون على قوة الجاذبية والإغواء. وفي علاقةٍ أو زواجٍ مّا، لا تتركز القوة بالضرورة في يد الشريك الأكبر، ولكن في كيمياء الجاذبية الغامضة. وفي عالم الأعمال التجارية، يعرف الموظفون التنفيذيون الأذكياء أن القيادة ليست مجرد قضية إصدار أوامر، بل إنها تنطوي أيضاً القيادة بالقدوة، واجتذاب الآخرين لعمل ما تريد. ذلك أن من الصعب إدارة منظمة كبيرة بالأوامر وحدها بل إنك محتاج كذلك إلى جعل الآخرين يعتنقون قيمك. وبالمثل، فإن الممارسات المعاصرة لأعمال الشرطة القائمة على أساس اجتماعي تعتمد على جعل رجال الشرطة ودودين بما يكفي لجعل مجتمعهم يرغب بمساعدتهم على تحقيق أهداف الجميع المشتركة.

ولطالما فهم الزعماء السياسيون القوة التي تأتي من الجاذبية. فإذا أقنعتك بالرغبة في أن تفعل ما أريد، فعندئذ لن أضطر إلى استخدام الجزر والعصيّ لأجعلك تفعله. وبينما يستطيع الزعماء في البلدان الفاشستية أن يستخدموا القصر ويصدروا الأوامر، فإن السياسيين في الديموقراطيات مضطرون إلى الاعتماد أكثر على مزيج من الإغراء والجاذبية. فالقوة الناعمة عنصر ثابت في السياسة الديمقراطية، فالقدرة على ترسيخ التفضيلات تميل إلى الارتباط مع الموجودات غير الملموسة مثل الشخصية الجذابة، والثقافة، والمؤسسات والقيم السياسية، والسياسات التي يراها الآخرون مشروعة أو ذات

سلطة معنوية أخلاقية. فإذا كان القائد يمثل قيماً يريد الآخرون اتباعها، فستكون القيادة أقل كلفة.

والقوة الناعمة ليست شبيهة بالتأثير فقط، إذ إن التأثير قد يرتكز على القوة الصلبة للتهديدات والرشاوى. كما أن القوة الناعمة أكثر من مجرد الإقناع أو القدرة على استمالة الناس بالحجة، ولو أن ذلك جزء منها. بل هي أيضاً القدرة على الجذب، والجذب كثيراً ما يؤدي إلى الإذعان. وعند تعريف القوى الناعمة من خلال السلوك، فإنها - ببساطة - هي القوة الجذابة. أما بالنسبة للموارد، فإن موارد القوة الناعمة هي الموجودات التي تنتج مثل هذه الجاذبية. ويمكن قياس ما إذا كانت أصول أو موجودات معنية هي من موارد القوة الناعمة المنتجة للجاذبية عن طريق سؤال الناس من خلال استطلاعات الرأي أو جماعات التركيز. أما إن كانت تلك الجاذبية بدورها تعطي النتائج المرغوبة في السياسة فهذا ما يجب الحكم عليه في قضايا معنية. فالجاذبية لا تقرر دائماً تفضيلات الآخرين، ولكن هذه الفجوة بين قياس القوة بحسب الموارد، والحكم على القوة بحسب نتائج السلوك ليست قاصرة على القوة الناعمة وحدها، بل هي تحث في كل أشكال القوة. فقبل سقوط فرنسا عام 1940، كانت بريطانيا وفرنسا تملكان دبابات أكثر مما تملك ألمانيا. ولكن هذه الميزة في موارد القوى العسكرية لم تقدم نبوءة دقيقة عن نتيجة المعركة.

إن إحدى طرق التفكير في الفرق بين القوة الصلبة والناعمة هي النظر في الطرق المختلفة التي تستطيع بها الحصول على النتائج التي تريدها. فأنت تستطيع أن تأمرني أن أغيّر تفضيلاتي وأفعل ما تريده بأن تهددني بالقوة أو العقوبات الاقتصادية. وتستطيع أن تغريني بعمل ما تريده باستخدام قوتك الاقتصادية بدفع المال لي. وتستطيع أن تحدّ

من تفضيلاتي بوضع جدول الأعمال بطريقة تجعل متابعة رغباتي المسرفة تبدو أمراً غير واقعي. أو تستطيع أن تتوسل إلى شعوري بالانجذاب، أو المحبة، أو الواجب في علاقتنا وتتوسل إلى قيمنا وأهدافنا المشتركة[7]. فإذا اقتنعت بمسايرة أغراضك دون حدوث أي تهديد صريح أو مبادلة - وباختصار، إذا تقرر سلوكي من خلال جاذبية يمكن ملاحظتها ولكنها غير ملموسة - فإن القوة الناعمة تكون شغّالة. ذلك أن القوة الناعمة تستخدم نوعاً مختلفاً من العمل (وهي ليست قوة القسر ولا المال) لتوليد التعاون - وهي الانجذاب إلى القيم المشتركة، والعدالة، ووجود الإسهام في تحقيق تلك القيم. ومثلما لاحظ آدم سميث بأن الناس تقودهم يدٌ خفية عندما يتخذون قراراتهم في سوق حرة، فإن قراراتنا في سوق الأفكار كثيراً ما تشكلها القوة الناعمة - وهي انجذاب غير ملموس يقنعنا بمسايرة أغراض الآخرين دون حدوث أي تهديد صريح أو مبادلة.

إن القوتين الصلبة والناعمة مترابطتان لأنهما معاً من جوانب قدرة المرء على تحقيق أغراضه بالتأثير على سلوك الآخرين. وما يميز بينهما هو الدرجة في طبيعة السلوك وفي كون الموارد ملموسة فالقوة الآمرة- أي القدرة على تغيير ما يفعله الآخرون- يمكن أن ترتكز على الإرغام أو على الإغراء أما قوة التعاون الطوعي - أي القدرة على تشكيل ما يريده الآخرون - فيمكن أن ترتكز على جاذبية ثقافة المرء وقيمه أو مقدرته على التلاعب بجدول أعمال الخيارات السياسية بطريقة تجعل الآخرين يعجزون عن التعبير عن بعض التفضيلات؛ لأنها تبدو بعيدة عن الواقع أكثر من اللازم. وتتدرج أنماط السلوك بين الأمر والتعاون الطوعي على مدى الطيف من الإرغام على الإغراء الاقتصادي، إلى وضع جدول أعمال، إلى الجاذبية المحضة. وتميل

موارد القوة الناعمة إلى الترابط مع طرف التعاون الطوعي من طيف السلوك، بينما تترابط موارد القوة الصلبة في العادة مع السلوك الآمر ولكن العلاقة غير كاملة. على سبيل المثال، تتجذب البلدان أحيانا إلى بلدان أخرى ذات قوة آمرة عن طريق أساطير عدم قابليتها للهزيمة، كما أن القوة الآمرة قد تستخدَمُ أحياناً لإقامة مؤسسات تُعْتَبَرُ مشروعةً وقانونية فيما بعد. فالاقتصاد القوي يقتصر على تقديم موارد للعقوبات والمدفوعات فحسب، بل يمكنه أيضاً أن يكون مصدراً للجاذبية. وبين بعض الموارد المعينة فيه من القوة ما يكفي لتمكيننا من استخدام مرجع مختصر مفيد لموارد القوة الصلبة - والناعمة -[8].

	ناعمة	صلبة
طيف أنماط السلوك	جاذبية — وضع جدول الأعمال تعاون طوعي ← * *	الإغراء — الإرغام * * → الأمر
أرجح الموارد المحتملة	المؤسسات — القيم الثقافية السياسات	المدفوعات — القوة الرشاوي — العقوبات

القـوة

في السياسة الدولية، تنشأ الموارد المنتجة للقوة الناعمة إلى حد كبير من القيم التي تعبر عنها منظمة أو بلد مّا في ثقافته، وفي الأمثلة التي تضربها ممارساته الداخلية والسياسية، وفي الطريقة التي يعالج بها علاقته مع الآخرين. وقد تجد الحكومات أن من الصعب السيطرة على القوة الناعمة واستخدامها أحياناً، ولكن ذلك لا يقلل أهميتها. ولقد كان وزير خارجية فرنسي سابق هو الذي لاحظ أن الأميركيين

أقوياء لأنهم يستطيعون "إلهام أحلام الآخرين ورغباتهم بفضل إتقانهم للصور العالمية عن طريق الأفلام والتلفزيون، ونظراً لأن أعداداً كبيرة من الطلبة من بلدان أخرى يأتون إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراساتهم، لهذه الأسباب نفسها"(9). فالقوة الناعمة حقيقة مهمة. وحتى الواقعي البريطاني آ. هـ. كار، كتب في عام 1939 يصف القوة الدولية بثلاث فئات هي: القوة العسكرية، والاقتصادية، والسيطرة على الرأي(10). والذين ينكرون أهمية القوة الناعمة يشبهون الناس الذين لا يفهمون قوة الإغواء.

ففي أثناء مقابلة مع الرئيس جون ف. كيندي، انفجر السياسي الكبير جون ج. ماكلوي غاضباً من الاهتمام بالشعبية والجاذبية في السياسة العالمية: "الرأي العالمي؟ إنني لا أومن بالرأي العالمي. إن الشيء الوحيد الذي يهم هو القوة". ولكن كيندي، مثل سلفيه الرئيسين وودرو ويلسون وفرانكلين روزفلت، كان يفهم بأن القدرة على اجتذاب الآخرين والتأثير في آرائهم هي عنصر قوة(11). فكان يفهم أهمية القوة الناعمة.

وكما ذكرنا آنفاً فإن موارد القوة نفسها يمكنها أحياناً أن تؤثر على طيف السلوك بأكمله، من الإرغام إلى الجاذبية. فالبلد الذي يعاني انحطاطا اقتصادياً وعسكرياً يحتمل أن لا يفقد موارد قوته الصلبة، بل يفقد أيضاً بعض قدرته على تشكيل جدول الأعمال العالمي، وبعض جاذبيته. وبعض البلدان قد تنجذب إلى بلدان أخرى ذات قوة صلبة بواسطة أسطورة كونها لا تقهر، وكونها شيئاً حتمياً. ولقد حاول هتلر وستالين تطوير أساطير من هذا النوع. ويمكن استخدام القوة الصلبة أيضا بإقامة إمبراطوريات ومؤسسات ووضع جدول الأعمال للدول الأصغر منها – ويشهد على ذلك التحكم السوفيتي ببلدان أوروبا

الشرقية. ولقد كان مما يعلق الرئيس كيندي بحق أن استطلاعات الرأي كانت تظهر أن الولايات المتحدة لها شعبية أكبر رغم ذلك فإنها كانت تظهر أيضاً تفوقاً سوفيتيا في حالات التفهم لبرنامجه الفضائي وقوة ترسانته النووية[12]. ولكن القوة الناعمة لا تعتمد على القوة الصلبة. فالفاتيكان له قوة ناعمة رغم تساؤل ستالين الساخر: "كم فرقة عسكرية يملك البابا؟" ولقد كان لدى الاتحاد السوفيتي ذات مرة كثير من القوة الناعمة، ولكنه فقد الكثير منها بغزوه لهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا. ولقد راحت القوة السوفيتية الناعمة تنحط حتى مع استمرار نمو موارده الاقتصادية والعسكرية الصلبة فبسبب سياساته الوحشية، فإن قوة الاتحاد السوفيتي الصلبة أدت في الحقيقة إلى تدنّي قوته الناعمة. وعلى عكس ذلك فإن منطقة النفوذ السوفيتية في فنلندا قد عززتها درجة من القوة الناعمة. وبالمثل فإن منطقة نفوذ الولايات المتحدة في أميركا اللاتينية في ثلاثينيات القرن العشرين قد تعززت عندما أضاف فرانكلين روزفلت القوة الناعمة لسياسة "الجار الطيب"[13].

وتتمتع بعض البلدان أحياناً بنفوذ أعظم مما يوحي به وزنها العسكري والاقتصادي؛ لأنها تحدد مصلحتها الوطنية بحيث تشمل قضايا جذابة، مثل المساعدة الاقتصادية والعمل على إحلال السلام. وعلى سبيل المثال ففي العقدين الماضيين شاركت النرويج في محادثات السلام في الفلبين، والبلقان، وكولومبيا، وغواتيمالا، وسري لانكا، والشرق الأوسط. ويقول النرويجيون إن ذلك ينبع من تراثهم البروتستانتي اللوثري التبشيري، ولكن اتخاذ موقف صانع السلام يعطي النرويج سمعة التماسك بمثل تشاركها فيها أمم أخرى ويوسع قوة النرويج الناعمة. وقد جادل وزير خارجيتها جان بيترسون بقوله:

"إننا نكسب شيئا من التواصل" وفسّر ذلك بأن مكان النرويج على مثل هذا العدد الكبير من موائد المفاوضات يرفع فائدتها وقيمتها لبلدان اكبر منها[14].

ويصف مايكل ايغناطييف وضع كندا من وجهة نظر مماثلة: "يستمر النفوذ من ثلاثة فصول من الموجودات هي: السلطة الأخلاقية للمواطن الصالح، ولدينا شيء من ذلك، والطاقة العسكرية التي لدينا منها شيء أقل من ذلك بكثير وقابلية تقديم المساعدة على الصعيد الدولي". أما في حالة الولايات المتحدة فإن الشعار القائم هو: "لدينا شيء يريدونه. أنهم بحاجة إلى الشرعية"[15]. وهذا بدوره يمكن أن يزيد تأثير كندا عندما تساوم تجارتها العملاقة. فالحكومة البولندية قررت إرسال قوات إلى عراق ما بعد الحرب، ليس فقط لتتملق أميركا كسباً لرضائها، ولكن أيضا كطريقة لخلق صورة إيجابية واسعة عن بولندا في القضايا الدولية. وعندما سقطت حكومة طالبان في أفغانستان عام 2001، طار وزير خارجية الهند إلى كابول كي يرحب بالحكومة المؤقتة الجديدة، على متن طائرة لم تكن محملة بالأسلحة أو الأغذية، بل كانت محشوة بأشرطة سينمائية وموسيقية من بوليود، تم توزيعها بسرعة في سائر أنحاء العاصمة الأفغانية[16]. وكما سنرى في الفصل الثالث، فإنه كان كثيراً من البلدان لديها موارد قوة ناعمة.

والمؤسسات تستطيع توسيع القوة الناعمة ببلدها على سبيل المثال فإن بريطانيا في القرن التاسع عشر وأميركا في النصف الثاني من القرن العشرين قد رَوَّجتا قيمهما بخلق هيكل من القواعد الدولية يتماشى مع الطبيعة الليبرالية والديمقراطية لنظامها الاقتصادي: التجارة الحرة، ومعايير الذهب في حالة بريطانيا؛ وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية وهيئة الأمم المتحدة في حالة أميركا.

فعندما تجعل البلدانُ القوةَ مشروعةً في نظر الآخرين، فإنها تواجه مقاومة أقل لرغباتها. فإذا كانت ثقافة بلدٍ مّا وعقيدته الآيديولوجية جذابة، فإن الآخرين يتبعونه باستعداد أكبر. وإذا استطاع بلدٌ مّا أن يشكل قواعد دولية متمشيةً مع مصالحه وقيمه، فإن من الأرجح أن تبدو أعماله مشروعةً في عيون الآخرين. وإذا استخدم مؤسساتٍ أو اتبع قواعد من شأنها تشجيع بلدان أخرى على توجيه فعالياتها أو الحدّ منها بطريقة يفضلها، فإن ذلك البلد لن يحتاج إلى الكثير من الجزرات والعصيّ الباهظة التكاليف.

موارد القوة الناعمة

ترتكز القوة الناعمة لبلدٍ مّا على ثلاثة موارد، هي: ثقافته (في الأماكن التي تكون فيها جذابة للآخرين)، وقيمه السياسية (عندما يطبقها بإخلاص في الداخل والخارج)، وسياساته الخارجية (عندما يراها الآخرون مشروعة وذات سلطة معنوية أخلاقية).

فلنبدأ بالثقافة. إنها مجموعة القيم والممارسات التي تخلق معنىً للمجتمع. ولها عدة مظاهر فمن المألوف عادةً أن يميز المرء بين الثقافة العليا، كالأدب، والفن، والتعليم، التي تعجب النخبة، والثقافة الشعبية التي تركز على إمتاع الجماهير بالجملة.

فعندما تحتوي ثقافة بلدٍ مّا على قيم عالمية، وتروّج سياساتُهُ قيماً ومصالح يشاركه فيها الآخرون، فإنه يزيد من إمكانية حصوله على النتائج المرغوبة بسبب علاقاته التي يخلقها من الجاذبية والواجب. فالقيم الضيقة والثقافات المحدودة يقل احتمال إنتاجها للقوة الناعمة. والولايات المتحدة تستفيد من ثقافة عالمية التوجه. ولقد جادل المحرر الصحفي الألماني جوزيف جوف ذات مرة بأن قوة أميركا الناعمة أعظم

حتى من أصولها وموجوداتها الاقتصادية والعسكرية. "إن ثقافة الولايات المتحدة الرفيعة منها أو المتواضعة، تشع إلى الخارج بحدّة كان آخر عهد العالم بها أيام الإمبراطورية الرومانية ولكن بانعطاف جديد. ذلك أن السطوة الثقافية الرومانية والسوفيتية كانتا تتوقفان بالضبط عند حدودهما العسكرية. أما قوة أميركا الناعمة فهي تحكم إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس أبدا"[17].

ويتعامل بعض المحللين مع القوة الناعمة باعتبارها قاصرة ببساطة على القوة الثقافية الشعبية فيخطئون في الظن بأن سلوك الثقافة الناعمة يعادل الموارد الثقافية التي تساعد على إنتاجه في بعض الأحيان. وبذلك يخلطون بين الموارد الثقافية وسلوك الجاذبية على سبيل المثال، فإن المؤرخ نيل فيرغسون يصف القوة الناعمة باعتبارها "القوة غير التقليدية مثل السلع الثقافية والتجارية" ثم ينبذها على أساس "إنها... حسناً، رخوة"[18]. وبالطبع فإن الكوكا كولا وشطائر ماكدونالد الكبيرة لا تجتذب بالضرورة الناس في العالم الإسلامي كي يحبون الولايات المتحدة. ويقال: إن دكتاتور كوريا الشمالية كيم يونغ إيل يحب البيتزا وأشرطة الفيديو الأميركية، ولكن ذلك لا يؤثر على برامجه النووية. كما أن الأجبان والمشروبات الممتازة لا تضمن الانجذاب إلى فرنسا، ولا تضمن شعبيةُ ألعاب البوكيمون لليابان أن تحصل على النتائج السياسية التي ترغبها.

ولا يعني ذلك إنكار كون الثقافة الشعبية كثيراً ما تنتج قوةً ناعمة، ولكن كما رأينا آنفاً فإن تأثير أي مصدر للقوة يعتمد على السياق. فالدبابات ليست مصدر قوة عسكرية في المستنقعات أو الغابات. والفحم والفولاذ ليسا من مصادر القوة الكبرى إذا كان البلد لا يملك قاعدة صناعية. والصرب الآكلون لشطائر ماكدونالد كانوا يؤيدون

ميلوسوفيتش. والراونديون ارتكبوا فظائع بينما كانوا يرتدون قمصاناً قطنية عليها شعارات ورسوم أميركية. والأفلام الأميركية التي تجعل الولايات المتحدة جذابة في الصين وأميركا اللاتينية لها تأثير معاكس، بل هي في الحقيقة تقلل قوة أميركا الناعمة في المملكة العربية السعودية وباكستان. ولكن الاستطلاعات تُظهِرُ بصفة عامة أن ثقافتنا الشعبية قد جعلت الولايات المتحدة تبدو للآخرين "مثيرة. وغريبة. وغنية. وقوية. وصانعة للميول والتوجهات – وصاحبة الدور الأبرز في الحداثة والابتكار"[19]. ومثل هذه الصور لها جاذبية " في عصر يريد فيه الناس أن يشاركوا في الحياة الطيبة والرغيدة على الطراز الأميركي، حتى ولو كانوا – كمواطنين مُسَيسين – واعين بالجانب المنحدر المليء بالتقصير في أميركا من ناحية البيئة، والمجتمع، والمساواة"[20]. وعلى سبيل المثال، فعند شرح تحرك جديد نحو استخدام الدعاوى القضائية لتأكيد الحقوق في الصين، أوضح ناشط صيني شاب: "لقد شاهدنا كثيراً من أفلام هوليود – وهي تصور الأعراس والجنائز، والذهاب إلى المحاكم. وهكذا فإننا نعتقد أن من الطبيعي أن تذهب إلى المحاكم بضع مرات في حياتك"[21]. فإذا كانت أهداف أميركا تشمل تقوية النظام القانوني في الصين، فإن مثل هذه الأفلام قد تكون أكبر تأثيراً من خُطَبٍ يلقيها السفير الأميركي عن أهمية حكم القانون.

وكما سنرى في الفصل التالي، فإن خلفية الجاذبية (والنفور) في ثقافة أميركا الشعبية في المناطق المختلفة وبين المجموعات المختلفة قد تسهّل أو تصعّب على المسؤولين الأميركيين ترويج سياساتهم. ففي بعض الحالات، مثل إيران، فإن صور هوليود نفسها التي تنفر المشايخ الحاكمة قد تكون جذابة للجيل الأصغر. وفي الصين فإن جاذبية

الثقافة الأميركية والنفور منها بين المجتمعات المختلفة يلغي كلٌّ منهما مفعول الآخرين بشكل متبادل.

وليست التجارة سوى إحدى الطرق التي تنتقل بها الثقافة فتنتشر فهي تنتقل أيضا بالاتصالات والزيارات والتبادلات الشخصية. إن الأفكار والقيم التي تصدرها أميركا في عقول أكثر من نصف مليون طالب أجنبي يدرسون في جامعاتها كل عام ثم يعودون إلى بلدانهم، أو في عقول المقاولين الآسيويين الذين يعودون إلى أوطانهم بعد نجاحهم في وادي السيليكون، تميل إلى الوصول إلى النخبة ذوي السلطة. فمعظم زعماء الصين لهم ولد أو بنت ممّن تثقفوا في الولايات المتحدة، ويمكنهم إعطاء صور واقعية عن أميركا كثيراً ما تكون على عكس الرسوم الكرتونية الساخرة في وسائل الدعاية الصينية الرسمية. وبالمثل، فعندما كانت الولايات المتحدة تحاول إقناع الرئيس الباكستاني مشرف بتغيير سياسته ليقدم تأييداً أكثر للإجراءات الأميركية في أفغانستان، كان مما ساعدها على ذلك احتمال كون مشرف قد تلقى رسالة من ولدٍ له يشتغل في منطقة بوسطن.

وسياسات الحكومة في الداخل والخارج مورد آخر من موارد القوة الناعمة. وعلى سبيل المثال، في الفصل العنصري في خمسينيات القرن العشرين في داخل أميركا قد انتقص من قوتها الناعمة في إفريقيا. أما اليوم فإن تطبيق عقوبة الإعدام، والقوانين الضعيفة للسيطرة على انتشار الأسلحة في أيدي عامة الناس تنتقص من القوة الأميركية الناعمة في أوروبا. وبالمثل فإن للسياسات الخارجية تأثيراً قوياً على القوة الناعمة. ومن الأمثلة على ذلك سياسات جيمي كارتر الخاصة بحقوق الإنسان، وكذلك جهود الحكومة لترويج الديمقراطية في أيام إدارتي ريغان وكلينتون. وفي الأرجنتين، فإن السياسات الأميركية

الخاصة بحقوق الإنسان التي رفضتها الحكومة العسكرية في سبعينيات القرن العشرين أنتجت قوة ناعمة لأباس بحجمها للولايات المتحدة بعد ذلك بعقدين من الزمن، عندما جاء البيرونيون إلى السلطة بعدما كانوا مسجونين في السابق. ويمكن أن تكون للسياسات آثار بعيدة المدى وقصيرة المدى أيضاً تختلف حسب التغييرات في السياق. فشعبية الولايات المتحدة في الأرجنتين في أوائل التسعينيات والقرن العشرين كانت انعكاساً لسياسات كارتر في سبعينيات ذلك القرن. وقد جعلت الحكومة الأرجنتينيةَ تؤيد السياسات الأميركية في الأمم المتحدة في البلقان.

ورغم ذلك فإن القوة الأميركية الناعمة قد تآكلت بشكل كبير بعد أن تغير السياق فيما بعد عندما عجزت الولايات المتحدة في إنقاذ الاقتصاد الأرجنتيني من الانهيار.

إن السياسات الحكومية لبلدٍ مّا تعزز قوته الناعمة أو تبددها. ذلك أن السياسات المحلية والخارجية التي تبدو منافقة، أو متغطرسة، أو غير مبالية برأي الآخرين، أو قائمة على معالجة ضيقة الأفق للمصالحة الوطنية قد تتقوض القوة الناعمة. على سبيل المثال، ففي الهبوط الحاد لجاذبية الولايات المتحدة عند قياسها باستطلاعات مأخوذة بعد حربها على العراق عام 2003، قال معظم الناس الذين عبروا عن آراء ساخطة أنهم يردون على إدارة بوش وسياساتها وليس على الولايات المتحدة عموماً. فهم يميزون حتى الآن بين شعب أميركا وثقافتها وبين السياسات الأميركية. فقد استمرت جماهير معظم الأمم في إعجابها بالولايات المتحدة من اجل تقنيتها، وموسيقاها، وأفلامها وتلفزيونها. ولكن أغلبيات كبيرة في معظم البلدان قالت إنها تكره نمو النفوذ الأميركي في بلادها[22]. وليست حرب عام 2003 على العراق

هي أول عمل سياسي جعل الولايات المتحدة مكروهة شعبياً. فكما سنرى في الفصل التالي، فقد اعترض كثير من الناس حول العالم على حرب أميركا في فيتنام قبل ثلاثة عقود من الزمن وكان موقف أميركا يعكس انعدام شعبية تلك السياسة. وعندما تغيرت السياسة وتراجعت ذكريات تلك الحرب وانحسرت، استعادت الولايات المتحدة معظم قوتها الناعمة المفقودة. أما حدوث الشيء نفسه في أعقاب الحرب على العراق فسوف يعتمد على نجاح سياسات أميركا في العراق، وعلى تطورات الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني وعلى عوامل أخرى كثيرة.

إن القيم التي تدافع عنها حكومة مّا فتنتصر لها بسلوكها في الداخل (كالديمقراطية مثلاً) وفي المؤسسات الدولية (بالعمل مع الآخرين)، وفي السياسة الخارجية (بتشجيع السلام وحقوق الإنسان) تؤثر تأثيراً قوياً على تفضيلات الآخرين. فالحكومات يمكن أن تجتذب الآخرين أو تنفرهم بتأثير المثل الذي تضربه له كقدوة. ولكن القوة الناعمة لا تعد ملكيتها للحكومة بالدرجة نفسها كامتلاكها للقوة الصلبة. فبعض موجودات القوة الصلبة، كالقوات المسلحة هي من الممتلكات الحكومية بشكل صارم. أما غيرها فهي ممتلكات وطنية في الأصل، كالنفط والاحتياطيات المعدنية، ويمكن تحويل الكثير منها إلى السيطرة الجماعية، كأسطول الطيران المدني الذي يمكن حشده وتعبئته في حالة الطوارئ. وعلى عكس ذلك، فإن الكثير من موارد القوة الناعمة منفصلة عن الحكومة الأميركية، ولا تستجيب لأغراضها إلاّ جزئياً. ففي فترة فيتنام، على سبيل المثال، كانت الثقافة الأميركية الشعبية كثيراً ما تعمل بطريقة تسير على عكس أغراض سياسة الحكومة الرسمية. واليوم نرى أن أفلام هوليود التي تظهر نساء شبه عاريات لمواقف متحررة أو مجموعات مسيحية أصولية تنتقد الإسلام

بشدة فتعتبره ديناً شريراً تقع كلها (بحق) خارج سيطرة الحكومة في مجتمع ليبرالي، ولكنها تنتقص من جهود الحكومة لتحسين العلاقات مع الأمم الإسلامية.

حدود القوة الناعمة

يعترض بعض المشككين على فكرة القوة الناعمة لأنهم يفكرون في القوة على نحو ضيق لا يتعدى إصدار الأوامر، والسيطرة الفعالة. وهم يرون أن التقليد أو الجاذبية هما تقليد أو جاذبية فقط، وليس قوة. وكما رأينا فإن بعض التقليد أو الجاذبية لا ينتج قوة كبيرة على نتائج السياسة، كما أن التقليد لا يعطي نتائج مرغوبة دائماً. وعلى سبيل المثال فقد كانت اليابان في ثمانينيات القرن العشرين محطاً للإعجاب بسبب عملياتها الصناعية الإبتكارية. ولكن تقليد الشراكات لها في بلدان أخرى عاد إليها كهاجس راح يقلق اليابانيين عندما تناقصت قوتهم في السوق. وبالمثل، فإن الجيوش غالباً ما تقلد الخطط التكتيكية الناجحة لخصومها فتلغي قيمتها وتصعّب على نفسها تحقيق النتائج التي تريدها. ومثل هذه الملاحظات صحيحة، ولكنها تغفل عن الفكرة القائلة بأن ممارسة الجاذبية على الآخرين كثيراً ما تتيح لك الحصول لك على ما تريد. إن المشككين الذين يعرفون القوة بأنها هي الأعمال المتعمدة لإصدار الأوامر والسيطرة يتجاهلون الوجه الثاني، أو "التركيبي" للقوة - أي القدرة على الحصول على النتائج التي تريدها دون أن تضطر إلى إرغام الناس على تغيير سلوكهم على طريق التهديدات والرشاوى.

وفي الوقت ذاته، فإن المهم تحديد الشروط التي بموجبها يزداد احتمال كون الجاذبية مؤدية إلى النتائج المرغوبة، وكذلك الشروط التي

لا تؤدي فيها إلى مثل تلك النتائج. وكما رأينا، فإن الثقافة الشعبية يرجح أن تجتذب الناس وتنتج قوةً ناعمة بمعنى النتائج المفضلة في أوضاع تكون فيها الثقافات متقاربة أو مشابهة إلى حد ٍ مّا، وليست متباينة بشدة. فكل قوة تعتمد على السياق - مَنْ يتواصل مع مَنْ وتحت أي ظروف - ولكن القوة الناعمة تعتمد أكثر من القوة الصلبة على وجود مفسرين ومتلقّين مستعدين. وعلاوة على ذلك فإن الجاذبية كثيراً ما يكون لها تأثير واسع الانتشار يخلق أثراً عاماً أكثر مما ينتج عملاً محدداً يمكن ملاحظته بسهولة. وبالضبط يمكن استثمار المال، يتحدث السياسيون عن تخزين رأسمال سياسي يمكن السحب منه في ظروف المستقبل. وبالطبع فإن مثل هذه النوايا الحسنة قد لا تحظى بالتقدير في آخر الأمر: لأن انتشار التأثير المتبادل ملموس مادياً بصورة أقل من التبادل الفوري المباشر. ومع ذلك، فإن النتائج غير الملموسة للجاذبية والتأثير المتوزع الانتشار قد تحُدِثُ فرقاً مهماً في الحصول على النتائج المرغوبة في حالات المساومة لعقد صفقات. ولولا ذلك لكان الزعماء يصرّون على الحصول على مدفوعات مباشرة فوراً وعلى التبادل بشكل محدود. ونحن نعرف أن هذه ليست هي الطريقة التي يتصرفون بها على الدوام. ولقد قام علماء علم النفس الاجتماعي بتطوير كمية كبيرة من الأبحاث العلمية التجريبية في استكشاف العلاقات بين الجاذبية والقوة.(23)

ثم إن من المحتمل أن تكون القوة الناعمة أكثر أهمية عند توزعها في بلد آخر بدلا من بقائها مركزة فالدكتاتور لا يستطيع أن يهمل المبالاة بآراء الناس في بلده إهمالاً تاماً، ولكنه كثيراً ما يستطيع تجاهل ما إذا كانت هناك شعبية لبلد آخر أم لم تكن عندما يحسب أن كان من مصلحته أن يكون مساعداً. وفي الديمقراطيات التي يتمتع فيها الرأي

العام والبرلمانات بالأهمية تضيق الفسحة المتاحة للزعماء السياسيين لتبنّي التكتيكات وعقد الصفقات أكثر مما هي عليه الحال في الأنظمة الاستبدادية. وهكذا كان من المستحيل أن تسمح الحكومة التركية بنقل قوات أميركية عبر بلادها عام 2003 لأن السياسات الأميركية كانت قد أنقصت شعبيتنا لدى الرأي العام وفي البرلمان. وعلى عكس ذلك فقد كان من الأسهل بكثير أن تحصل الولايات المتحدة على استخدام القواعد في أراضي حكومة أوزبكستان المستبدة، من أجل عمليات أميركا في أفغانستان.

وأخيراً، فعلى الرغم من أن القوة الناعمة لها في بعض الأحيان تأثيرات مباشرة على أهداف محدودة - كما يشهد على ذلك عجز الولايات المتحدة عن الحصول على تأييد شيلي والمكسيك في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة عام 2003، بعد أن هبطت سياستنا بشعبيتنا - فإن الاحتمال الأكبر هو أن يكون للقوة الناعمة تأثير على الأهداف العامة التي يسعى إليها بلدٌ مّا[24]. وقبل خمسين عاماً، مَيَّزَ آرنولد وولفرز بين "أهداف التملك" المحددة التي تلاحقها البلدان، وبين "أهداف المحيط"، مثل تشكيل بيئة مؤدية إلى الديمقراطية[25]. ومن المهم في السياسة الخارجية أن تتم متابعة هذين النوعين من الأهداف على حد سواء. ذلك أنه إذا نظر المرء في المصالح الوطنية الأميركية المختلفة - مثلاً، فقد تكون القوة الناعمة ذات صلة أكثر من القوة الصلبة في منع هجوم، أو في حراسة الحدود، وحماية الحلفاء. ولكن القوة الناعمة ذات صلة على وجه الخصوص في تحقيق "أهداف المحيط". فلها دور حساس الأهمية في تشجيع الديمقراطية، كحقوق الإنسان، والأسواق المفتوحة. فاجتذاب الناس إلى الديمقراطية أسهل من إرغامهم على أن يكونوا ديمقراطيين. أن حقيقة كون تأثير الجاذبية

على تحقيق النتائج المنفصلة يختلف باختلاف السياق ونمط الأهداف ولا تجعل الجاذبية غير ذات صلة، تماماً مثلما أن القنابل والحراب لا تساعدنا في سعينا لمنع انتشار الأمراض المعدية، أو لإبطاء الاحتراب العالمي، أو لخلق الديمقراطية. ويعترض متشككون آخرون على استخدام مصطلح "القوة الناعمة" في السياسة الدولية لأن الحكومات ليست لها سيطرة كاملة على الجاذبية. فالكثير من القوة الأميركية الناعمة أنتجتها هوليود، وهارفارد، وبرمجيات المايكروسوفت ومايكل جوردان. ولكن كون المجتمع المدني هو أصل الكثير من القوة الناعمة لا يبرهن على عدم وجودها. ففي المجتمع الليبرالي المتحرر، لا تستطيع الحكومة، ولا ينبغي لها، أن تسيطر على الثقافة. والحق أن غياب سياسات السيطرة يمكن أن يصبح هو نفسه مصدراً للجاذبية. ويروي المخرج السينمائي التشيكي ميلوس فورمان أنه عندما سمحت الحكومة الشيوعية بدخول الفيلم الأميركي **دزينة رجال غاضبين** بسبب تصويره القاسي للمؤسسات الأميركية، استجاب المثقفون التشيك بالتفكير: "إذا كان ذلك البلد قادراً على عمل هذا النوع من الأشياء والأفلام عن نفسه، فإن ذلك البلد لابد أن له كرامة يعتزّ بها وقوة داخلية، ولا بد أنه قوي بما فيه الكفاية، ولابد أنه حر"[26].

صحيح أن الشركات، والجامعات، والمؤسسات، والكنائس والمجموعات الأخرى غير الحكومية تطور قوة ناعمة خاصة بها قد تعزز أهداف السياسة الخارجية أو تتعارض معها.. فذلك سبب آدعى لجعل الحكومات تضمن أن تعزز أعمالُها وسياساتُها قوتَها الناعمة بدلاً من أن تنتقص منها. وهذا صحيح على وجه الخصوص ما دامت الموارد الخاصة للقوة الناعمة من المحتمل أن تتزايد أهميتها في عصر المعلومات المعولمة.

وأخيراً، فإن بعض المشككين يجادلون أن الشعبية حسب مقاييس استطلاعات الرأي هي شيء مؤقت زائل ولذا لا ينبغي أخذها على محمل الجد وبالطبع يجب أن يحرص المرء على أن لا يقرأ في استطلاعات الرأي شيئاً أكثر من اللازم. فهي مقياس جوهري ولكنه غير كامل لموارد القوة الناعمة، لأن الأجوبة تختلف بحسب طريقة صياغة الأسئلة، وما لم يتم طرح الأسئلة نفسها بشكل ثابت متجانس على مدى فترة من الزمن، فإنها تمثل لقطات خاطفة جامدة وليس صور متحركة مستمرة. وقد تتغير الآراء، ومثل هذا التقلب السريع لا يمكن رصده والتقاطه في أي استطلاع واحد. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الزعماء السياسيين كثيراً ما يضطرون إلى اتخاذ قرارات غير شعبية لأنها الشيء الصحيح الذي يجب القيام به، فيأملون أن تتصلح شعبيتهم إذا ثبت في وقت لاحق أن القرار كان صحيحاً. ومع ذلك فإن استطلاعات الرأي هي مقاربة جيدة أولى لمدى ظهور جاذبية بلد مّا، وكذلك للتكاليف التي تفرضها السياسات غير الشعبية، وخاصة عندما تبدو هذه الأشياء مطردة ومتماسكة في الاستطلاعات مع مرور الزمن. وكما سنرى في الفصل التالي، فإن تلك الجاذبية يمكن أن يكون لها أثر على قدرتنا على الحصول على النتائج التي نريدها في العالم.

الدور المتغير للقوة العسكرية

في القرن العشرين، أضاف العلم والتكنولوجيا أبعاداً كبيرة ومفاجئة إلى موارد القوة. فمع قدوم العصر الذري، لم تكن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يمتلكان الجبروت الصناعي فحسب، بل ومعه ترسانات نووية وقذائف عابرة للقارات. وهكذا بدأ عصر القوى العظمى. وفيما بعد فإن دور أميركا القيادي في ثورة المعلومات قرب

نهاية القرن أتاح لها أن تخلق صورة في الشؤون العسكرية. ذلك أن القدرة على استخدام تكنولوجيا المعلومات لخلق أسلحة دقيقة، ومخابرات حقيقية، ومُسُوحٍ واسعة لميادين القتال الإقليمية، وتحسين في القيادة والسيطرة، قد أتاحت للولايات المتحدة أن تندفع إلى الأمام باعتبارها القوة العسكرية العظمى الوحيدة في العالم.

ولكن تقدم العلم والتكنولوجيا كانت له آثار متناقضة على القوة العسكرية على مدى القرن الماضي. فهو من جهة جعل الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة في العالم، بجبروت عسكري لا يُضاهَى، ولكنه في الوقت نفسه أحدث تزايداً تدريجياً في التكاليف السياسية والاجتماعية لاستخدام القوة العسكرية من أجل الغزو. ومن المفارقات أن الأسلحة النووية كانت مقبولة للردع، ولكنها أثبتت أنها رهيبة ومدمرة إلى درجة أنها صارت عضلات مربوطة مقيدة – أي ذات تكلفة أكثر من اللازم عند استعمالها في الحرب، إلاّ تحت أقسى الظروف القاهرة، من الناحية النظرية[27]. وهكذا انتصرت فيتنام الشمالية غير النووية على أميركا النووية، كما أن الأرجنتين غير النووية لم ترتدع عن مهاجمة جزر الفولكلاند التابعة لبريطانيا رغم مكانة بريطانيا النووية.

أما التغير المهم الثاني فكان هو الطريقة التي حرّضت بها تقنيةُ الاتصالات الحديثة نشوءَ النزعة القومية وانتشارَها، مما زاد صعوبة تحكم الإمبراطوريات بالسكان المتيقظين اجتماعياً. ففي القرن التاسع عشر كانت بريطانيا تتحكم بربع العالم بنسبة ضئيلة من سكانه. ومع تنامي النزعة القومية، صار الحكم الاستعماري أبهظ تكلفة، فانهارت الإمبراطورية البريطانية. فالإمبراطوريات الرسمية ذات التحكم المباشر بالسكان الخاضعين مثل ممارسات أوروبا أثناء القرنين التاسع عشر والعشرين صارت تكاليفها أبهظ من اللازم في القرن الحادي والعشرين.

وبالإضافة إلى تكنولوجيا الذرة والاتصالات، فإن التغيرات الاجتماعية داخل الديمقراطيات الكبيرة قد زادت أيضاً تكاليف استخدام القوة العسكرية. فديمقراطيات ما بعد التصنيع ترتكز على الرفاهية بدلاً من المجد، كما أنها تكره الإصابات الكثيرة. وليس معنى ذلك أنها لن تستخدم القوة، حتى عندما تكون الإصابات متوقعة - وتشهد على ذلك حالةُ كلٍّ من بريطانيا وفرنسا، والولايات المتحدة في حرب الخليج عام 1991، وبريطانيا والولايات المتحدة في حربها على العراق عام 2003. ولكن غياب أخلاق المحاربين في الديمقراطيات الحديثة يعني أن استخدام القوة يتطلب تبريراً أخلاقياً منفصلاً بأحكام متقن لضمان التأييد الشعبي، إلا إذا كان البقاء الحقيقي مهدداً بالخطر. وبالنسبة للديمقراطيات المتقدمة، تبقي الحرب ممكنة، ولكنها تلقى قبولاً أقل بكثير مما كان عليه الحال قبل قرن، أو حتى نصف قرن مضى[28]. ذلك أن أقوى الدول قد فقدت كثيراً من شهوة الغزو[29].

ولقد أشار روبرت كانمان بحق إلى أن هذه التغييرات الاجتماعية قد ذهبت في أوروبا إلى أبعد مما ذهبت إليه في الولايات المتحدة، رغم أن عبارته الذكية تبسط الفوارق أكثر من اللازم عند قوله إن الأميركيين من المريخ [إله الحرب في أساطير الرومان]، والأوروبيين من الزهرة [آلهة الحب والجمال في أساطير الرومان كذلك[30] ذلك أن الأوروبيين رغم كل شيء قد شاركوا في الضغط من أجل استخدام القوة في كوسوفو عام 1999. وأظهرت الحرب على العراق أن هناك أوروبيين من المريخ وأميركيين يفضلون الزهرة. مع ذلك فإن نجاح البلدان الأوروبية في خلق جزيرة من السلام على قارتهم التي خربتها الحروب الفرنسية - الألمانية في أقل من قرن قد يجعلهم ميالين إلى حلول الصراعات أكثر جنوحاً إلى السلم.

غير أنه في الاقتصاد المعولم يتعين حتى على الولايات المتحدة أن تنظر في كيفية إمكانية تعرض أهدافها الاقتصادية لخطر عند استخدامها للقوة. فبعد انتصارها في الحرب العالمية الثانية، ساعدت في إعادة بناء اقتصاد اليابان. ولكن من الصعب أن يتصور المرء إمكانية تهديد فعلي أميركي باستخدام القوة لفتح أسواق اليابان أو تغيير قيمة الينّ. ولا يستطيع المرء أن يتصور بسهولةٍ استخدام الولايات المتحدة للقوة كحل النزاعات مع كندا أو أوروبا. فعلى عكس الفترات السابقة فإن جزر السلام التي لم يعد استخدام القوة فيها خياراً متاحاً في العلاقات بين الدول صارت تميز العلاقات بين معظم الديمقراطيات الليبرالية الحديثة، وليس في أوروبا وحدها. وإن وجود مثل هذه الجزر المسالمة لهو دليل على الأهمية المتزايدة للقوة الناعمة، حيث توجد قيم مشتركة حول ما يشكّل سلوكاً مقبولاً فيما بين الدول الديمقراطية المتشابهة. ففي علاقات الديمقراطيات المتقدمة كلها مع بعضها بعضاً فإنها جميعاً من الزهرة.

وحتى البلدان غير الديمقراطية التي تشعر بقيود شعبية أخلاقية أقل حول استخدام القوة يتعين عليها أن تنظر في تأثيراتها على أهدافها الاقتصادية. ففي الحرب مخاطرة ردع المستثمرين الذين يسيطرون على تدفق رؤوس الأموال في اقتصاد معولم[31].

ولعله كان من الأسهل قبل قرن من الزمن أن تستحوذ دولة على أراضي دولة أخرى بالقوة بدلاً من "تطوير الآلة الاقتصادية والتجارية الرفيعة المستوى للحصول على الفائدة من التبادل التجاري معها"[32]. ولكن من الصعب أن يتصور المرء اليوم مخططاً تحاول فيه اليابان مثلاً، أو تنجح باستخدام القوة لاستعمار جيرانها. وكما يجادل اثنان من محللي مؤسسة راند، فإنه " في عصر المعلومات فإن ميزات "التعاون"

تكتسب أهمية متزايدة. وعلاوة على ذلك فإن المجتمعات التي تحسّن قدراتها على التعاون مع الأصدقاء والحلفاء قد تكسب أيضاً ميزات تنافسية على منافسيها"[33].

ولا ينبغي أن يوحي شيء في هذا كله بأن القوة العسكرية لا تلعب أي دور في السياسة الدولية اليوم. فعلى العكس من ذلك فإن ثورة المعلومات لم تصل بعد إلى تحويل القسم الأكبر من العالم وهناك دول كثيرة لا تقيدها القوة الديمقراطية والمجتمعية والحرب الأهلية مستعرة في كثير من أجزاء العالم حيث تركت الإمبراطورياتُ المنهارةُ دولاً فاشلةً وفراغات في القوة. بل إن ما هو أهم من ذلك هي الطريقة التي تؤدي لها ديمقراطية التكنولوجيا إلى خصخصة الحرب. فالتكنولوجيا سيف ذو حدين. فمن جهة فإن التغييرات التكنولوجية والاجتماعية قد جعلت الحرب أبهظ كلفة على الديمقراطيات الحديثة، ولكن التكنولوجيا في الوقت نفسه تضع وسائل تدمير جديدة في أيدي المتطرفين من الجماعات والأفراد.

الإرهاب وخصخصة الحرب

ليس الإرهاب جديداً، ولا هو عدوٌّ أوحد. بل هو طريقة للنزاع موجودة منذ زمن طويل وكثيراً ما تُعَرَّفُ لأنها هجوم متعمد على غير المحاربين بهدف نشر الخوف والذعر. فمنذ قرن مضى رسم القصّاص جوزيف كونراد صورة لا تمحى للعقل الإرهابي، وكان الإرهاب ظاهرةً معروفة في القرن العشرين وسواء كان نتاجاً وطنيّاً أم عابراً للقومية فقد كان عنصراً ثابتاً في الصراعات في جميع أنحاء الشرق الأوسط، وايرلندا الشمالية، وإسبانيا، وسري لانكا، وكشمير، وجنوب إفريقيا، وغيرها. وقد وقع في كل قارة ما عدا القارة القطبية الجنوبية، وأثرّ

في كل بلد تقريبا. وكان 11 أيلول/ سبتمبر تصعيداً حاداً ومفاجئاً لظاهرة عمرها عمر الزمن. ومع ذلك فهناك تطوران جعلا الإرهاب مميتاً أكثر، وزادا صعوبة معالجته في القرن الحادي والعشرين.

وتنشأ مجموعة اتجاهات من التقدم المحرز في العالم والتكنولوجيا. فأولاً، هناك الطبيعة المعقدة والتكنولوجيا العليا والأنظمة الأساسية في الحضارة الحديثة. وكما أشارت لجنة من أكاديمية العلوم الوطنية، فإن قوى السوق والانفتاح تجمعت لتزيد كفاءة كثير من أنظمتنا الحيوية، كتلك التي تقدم المواصلات، والمعلومات، والطاقة، والرعاية الصحية. ولكن بعض الأنظمة (وإن لم تكن كلها) تصبح أكثر انكشافاً وعرضة للعطب وهشة كلما أصبحت أكثر تعقيداً وكفاءة[34].

وفي الوقت نفسه فإن التقدم يؤدي إلى "دمقرطة التكنولوجيا" فيجعل أدوات التدمير الشامل أصغر، وأرخص، وأسهل إتاحة للوصول إلى سلسلة من الأفراد والجماعات أوسع بكثير من ذي قبل. وبينما كانت القنابل وأجهزة توقيتها ذات مرة ثقيلة وغالية الثمن، فإن المتفجرات البلاستيكية وأجهزة توقيتها الرقمية خفيفة ورخيصة كما أن تكاليف خطف طائرة لا تزيد أحياناً على ثمن بطاقة.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن نجاح ثورة المعلومات يقدم وسائل غير غالية الثمن للاتصال والتنظيم تتيح للمجموعات التي كانت ذات مرة محدودة ومقيدة ضمن سلطة الشرطة الوطنية المحلية أن تصبح ذات نطاق عالمي. فقبل ثلاثين عاماً كان الاتصال الفوري العالمي غالي الكلفة بما يكفي لجعله مقتصراً على الكيانات الكبيرة ذات الميزانيات الضخمة كالحكومات، والشركات المتعددة الجنسيات، أو الكنيسة

الرومانية الكاثوليكية، أما اليوم فإن شبكة الانترنت الدولية تجعل الاتصال العالمي مجاناً من الناحية العملية لأي شخص يستطيع الوصول إلى مُودِم[35] [جهاز لربط حاسوب بآخر بخط هاتفي لتسهيل إرسال المعلومات أو البيانات]. وبالمثل فإن الانترنت قد خفضت تكاليف البحث عن المعلومات وإجراء الاتصالات المتعلقة بأدوات التدمير الواسعة النطاق. ويعتمد الإرهابيون أيضاً على إيصال رسائلهم بسرعة إلى عدد واسع من المستعين عبر أجهزة الإعلام والانترنت - ويشهد على ذلك التوزيع الواسع النطاق لمقابلات بن لادن التلفزيونية وأشرطة الفيديو المسجلة بعد 11 أيلول/ سبتمبر. ويعتمد الإرهاب اعتماداً حساساً على القوة الناعمة من أجل تحقيق انتصاره النهائي. وهو يعتمد على قدرته على اجتذاب الدعم من الجمهور بطريقة تعادل على الأقل قدرته على تدمير إرادة القتال عند عدوه.

وتعكس المجموعة الثانية من الاتجاهات تغييرات في حوافز الجماعات الإرهابية وتنظيمها. فقد كان الإرهابيون في منتصف القرن العشرين يميلون إلى أن تكون لديهم أهداف سياسية جديدة نسبياً، وهي أهداف لم يكن التدمير الشامل يخدمها على الأغلب، بل يعطلها. وكان يقال بأنهم يريدون أن يتفرج أناس كثيرون، وليس أن يُقْتَلَ أناس كثيرون. ومثل هؤلاء الإرهابيين كثيراً ما كانت تدعمهم وتسيطر عليهم سرّاً حكومات مثل حكومتي ليبيا أو سوريا(*).

وعند نهاية القرن، نَمَتْ جماعات أصولية على حافات عدة أديان. وكان أكثرها تعداداً هم ألوف الشباب المسلمين الذين ذهبوا للقتال ضد الاحتلال السوفيتي لأفغانستان. وهناك تدربوا على سلسلة واسعة من الفنون. وجندت كثيرين منهم منظمات ذات آراء متطرفة

(*) [أين الدليل على ذلك؟ وماذا عن الإرهابيين الصهاينة؟ أليس هذا موقفاً منحازاً من المؤلف مسبقاً؟: المعرب].

حول الالتزام الديني بالجهاد. وكما لاحظ المؤرخ والترلاكر، فإن "الإرهاب بين التقليديين، سواء أكانوا يمينيين أم يساريين، أم قوميين انفصاليين، لم ينجذبوا كثيراً نحو فرص التدمير الأكبر تلك... لقد أصبح الإرهاب أكثر وحشية وبلا تمييز منذ ذلك الحين"(36).

ويتعزز هذا الاتجاه عندما تتغير الحوافز من أهداف سياسية ضيقة إلى أهداف غير محدودة أو عقابية تقويها الوعود بالثواب في العالم الآخر. ولحسن الحظ، وعلى عكس الشيوعية والفاشية، فإن الآيديولوجية الإسلامية لم تتمكن من اجتذاب أتباع عالميين خارج المجتمع الإسلامي. ولكن ذلك المجتمع يقدم حوضاً كبيراً من أكثر من مليار شخص كي يتم التجنيد من بينهم. كما تغير التنظيم أيضاً. على سبيل المثال، فإن شبكة القاعدة من آلاف الأشخاص من خلايا ذات انتماء فضفاض الترابط في حوالي ستين بلداً تعطيها نطاقا يتجاوز بكثير أي شيء شوهد من قبل. ولكن حتى الخلايا الصغيرة يمكن أن يكون اختراقها أصعب من اختراق المنظمات شبه العسكرية ذات التسلسل الهرمي التي كانت معروفة في الماضي.

ولقد خلق الاتجاهان، التكنولوجي والآيديولوجي، مجموعةً جديدةً من الشروط والأحوال التي زادت كون الإرهاب مميتاً، كما زادت صعوبة معالجته والتعامل معه اليوم. وبسبب 11 أيلول/ سبتمبر، ونطاق القاعدة غير المسبوق، فإن التركيز الحالي هو بحق على الإرهاب المرتبط بالمتطرفين الإسلاميين، ولكن من الخطأ أن يقتصر انتباهنا أو ردود فعلنا على الإرهاب بين الإسلاميين، لأن ذلك يتجاهل الآثار لدمقرطة التكنولوجيا، ومجموعة التحديات الأوسع التي يجب مجابهتها. ذلك أن التقدم التقني يضع في أيدي المحترفين من الجماعات والأفراد طاقات تدميرية كانت ذات مرة محصورة بالدرجة

الأولى في أيدي الحكومات والجيوش. وكل مجموعة كبيرة من الناس فيها بعض الأعضاء الذين ينحرفون عن العرف، بعض المصرّين على التدمير. ويجدر بنا أن نتذكر أن أسوأ عمل إرهابي في الولايات المتحدة قبل 11 أيلول/ سبتمبر كان هو الذي ارتكبه تيموثي ماكفي، وهو متعصب معادٍ للحكومة من نبتٍ أو مَنْشأٍ محلي خالص. وبالمثل، فإن طائفة أوم شيزيكيو، التي أطلقت غاز السارين في مترو أنفاق طوكيو عام 1995 لا علاقة لها بالإسلام. وحتى إذا اتضح أن الموجة الحالية من قبل الإرهابي الإسلامي لها علاقة بالأجيال أو الدورات الزمنية، كالموجات الإرهابية في الماضي، فسوف يظل يتعين على العالم أن يواجه الأخطار العلمانية البعيدة الأمد الناشئة عن دمقرطة التكنولوجيا.

لقد ظلت صفة الموت تتزايد. ففي سبعينيات القرن العشرين أدى الهجوم الفلسطيني على الرياضيين الإسرائيليين في ألعاب ميونيخ الأولمبية، وعمليات القتل التي قامت بها الألوية الحمراء والتي استقطبت انتباه العالم إلى خسارة عشرات الأرواح. وفي ثمانينيات القرن العشرين، فجر المتطرفون السيخ طائرة إيرانديا فقتلوا 300 شخص وكلفت تفجيرات أيلول/ سبتمبر عام 2001 حياة آلاف الضحايا - وحدث هذا التصعيد كله دون استخدام أسلحة دمار شامل. فإذا أسقط المرء هذا الاتجاه المميت على وضع تصور فيه وصول مجموعة منحرفة في مجتمعٍ مّا إلى مواد حيوية أو نووية في غضون العقد القادم، فسيصبح من الممكن تصور قدرة الإرهابيين على تدمير حياة ملايين الناس.

ففي القرن العشرين تطلب فردٌ مريضٌ مثل هتلر أو ستالين أو بول بوت جهازَ حكومةٍ شمولية مستبدة لقتل أعدادا كبيرة من البشر. ولسوء الحظ فإن من السهل أكثر من اللازم الآن تصور قيام مجموعات

متطرفة من الأفراد بقتل الملايين دون أجهزة حكومات. وهذه بحق هي عملية "خصخصة الحرب"، وهي تمثل تغيراً كبيراً ومفاجئاً في السياسة العالمية. وعلاوة على ذلك، فإن هذه الخطوة التالية في تصعيد الإرهاب يمكن أن تكون لها آثار عميقة على طبيعة حضارتنا المدنية. فما الذي سيحدث لاستعداد الناس للوجود في مدن، ولقدرتنا على إدامة مؤسسات ثقافية إذا أدى هجوم في المستقبل إلى تدمير النصف السفلي من مانهاتن، أو منطقة المدينة من لندن، أو الضفة اليسرى من باريس، بدلاً من تدمير بنايتين للمكاتب فقط؟.

أن الإرهاب الجديد لا يشبه إرهاب الجيش الجمهوري الأيرلندي للمكاتب فقط؟. أو منظمة إيتا (الجناح العسكري لحركة الباسك الانفصالية في إسبانيا) في سبعينيات القرن العشرين، أو الألوية الحمراء في إيطاليا، كما أن الانكشاف والتعرض للعطب ليس قاصراً على أي مجتمع واحد.

وإن اتخاذ موقف "استمرار العمل كالمعتاد" إزاء كبح الإرهاب ليس كافياً. فالقوة لا تزال تلعب دوراً في السياسة الدولية، ولكن طبيعتها قد تغيرت في القرن الحادي والعشرين. فالتكنولوجيا تزيد وصول الإرهابيين إلى القوة المدمرة، ولكنهم كذلك يستفيدون كثيراً من قدرات الاتصال المتزايدة – مع بعضهم بعضاً عبر مناطق السيطرة، ومع المستمعين عبر العالم. وكما سنرى في الفصل الثالث، فإن كثيراً من المجموعات الإرهابية لديها قوة ناعمة بالإضافة إلى القوة الصلبة. ولقد كانت الولايات المتحدة على صواب في تغيير استراتيجيتها للأمن الوطني، بالتركيز على الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل بعد 11 أيلول/ سبتمبر عام 2001. ولكن الوسائل التي اختارتها إدارة بوش ركزت بثقل أكثر من اللازم على القوة الصلبة ولم تحسب حساباً كافياً للقوة

الناعمة. وتلك غلطة، لأن القوة الناعمة هي التي يكسب الإرهابيون من خلالها الدعم وكذلك المجندين الجدد.

الفاعل بين القوتين الصلبة والناعمة

إن القوتين الصلبة والناعمة تعزز كل منهما الأخرى أحياناً، وتتدخل فيها أحياناً أخرى. فالبلد الذي يحاول كسب الشعبية قد يكره ممارسة قوته الصلبة عندما ينبغي عليه أن يفعل، ولكن البلد الذي يطوّح بوزنه ذات اليمين وذات الشمال دون اعتبار لأثر ذلك على قوته الناعمة قد يجد آخرين يضعون العقبات في طريق قوته الصلبة. وما من بلد يحب أن يشعر أن هناك مَنْ يتلاعب به، حتى بواسطة القوة الناعمة. وفي الوقت نفسه، كما ذكرنا آنفاً، فإن القوة الصلبة قد تخلق أساطير عن عدم إمكانية الانحدار، أو عن الحتمية بشكل يجتذب الآخرين. ففي عام 1961، تابع الرئيس جون ف كيندي إجراء التجارب النووية بالرغم من ردود الفعل السلبية في استطلاعات الرأي: لأنه كان قلقا من التصورات العالمية عن المكاسب السوفيتية في سباق التسلح. فكان "مستعداً للتضحية بشيء من امتياز أميركا" الناعم "في مقابل مكاسب بالعملة الصعبة للامتياز العسكري"[37] وفي لهجة أكثر خفة وأقل جدية، فإن من المسلّي أنه قبل بضعة أشهر فقط من المظاهرات الحاشدة ضد الحرب في لندن وميلانو، استخدمت دور الأزياء في هاتين المدينتين ملابس ميدان عسكرية أميركية للكوماندوس مع بالونات متفجرة. وكما قال أحد مصممي تلك الأزياء، فإن الرموز الأميركية "لا تزال أقوى غطاء أمني"[38].

وعبر عصور التاريخ كلها، كثيراً ما كانت الدول الأضعف تتشارك معاً كي تحدث توازناً يحدّ من قوة دولة أقوى منها تهددها. ولكن ليس

دائماً. ففي بعض الأحيان كانت الدول الضعيفة تنجذب للانضمام إلى الموكب الذي تقوده دولة قوية، وخاصة عندما لا يكون أمامها خيار، أو عندما تكون القوة العسكرية للبلد الكبير مشفوعة بقوة ناعمة. وعلاوة على ذلك، وكما رأينا آنفاً، فإن القوة الصلبة يمكن أن يكون لها جانب جذاب أو ناعم أحياناً. وكما قال أسامة بن لادن في أحد أشرطة الفيديو: "عندما يرى الناس حصاناً قوياً وآخر ضعيفاً، فإنهم بطبيعتهم سيحبون الحصان القوي"[39]. وإذا تعمدنا مزج خلطة من هذا التعبير المجازي فإن تعاطف الناس مع الضحية المغلوبة هو احتمال أرجح من وضع رهانهم على تلك الضحية.

وتقدم الحرب على العراق عام 2003 مثالاً مثيراً للاهتمام عن تفاعل القوة بشكليها الصلب والناعم. فقد كانت بعض تلك الحرب مبنية على الأثر الرادع للقوة الصلبة. ويقال عن دونالد رامسفيلد قد تسلم منصبه وهو يعتقد أن الولايات المتحدة "يُنْظَرُ إليها حول العالم على أنها نمر من ورق، عملاق ضعيف عاجز عن تسديد ضربة". وصمم على أن يقلب تلك السمعة إلى عكسها[40]. وكان انتصار أميركا في حرب الخليج الأولى قد ساعد على إنتاج عملية أوسلو بشأن سلام الشرق الأوسط، وربما يكون لانتصارها في العراق عام 2003 أثر مماثل في آخر الأمر. وبالإضافة إلى ذلك، فإن دولاً مثل سوريا وإيران قد ترتدع عن دعمها للإرهابيين في المستقبل. فكانت هذه كلها أسباباً من القوة الصلبة للذهاب إلى الحرب. ولكن كانت هناك مجموعة أخرى من الدوافع لها علاقة بالقوة الناعمة. فقد اعتقد المحافظون الجدد أن القوة الأميركية يمكن استخدامها في تصدير الديمقراطية إلى العراق، وفي تحويل سياسة الشرق الأوسط. فإذا نجحت الحرب، فإن نجاحها نفسه سيجعلها مشروعة. وكما قال وليام كريستول ولورانس كابلان:

"ما هو وجه الخطأ في فرض السيطرة لخدمة أهداف سليمة ومثل عليا؟"[41].

وقد أصبح جزءٌ من النزاع حول شن الحرب على العراق صراعاً حول شرعية تلك الحرب. وحتى عندما يكون توازن القوى مستحيلاً (كما هي الحال الآن، مع كون أميركا هي القوة العظمى الوحيدة)، فإن البلدان الأخرى تظل قادرة على التجمع معاً لحرمان السياسة الأميركية من الشرعية، وبذلك تُضعِفُ القوة الأميركية الناعمة. فقد اغتاظت فرنسا، وروسيا، والصين من أحادية القطب العسكري الأميركي وراحت تحثّ على عالم تتعدد فيه الأقطاب أكثر. وفي رأي تشارلس كروتامر فإن "العراق أعطى فرنسا فرصة لخلق أول تحدٍّ متجانس متماسك لتلك السيطرة"[42]. وحتى دون مواجهة القوة العسكرية للدولة العظمى، كانت الدول الأضعف تأمل في ردع الولايات المتحدة بجعل استخدامنا لقوتنا الصلبة أبهظ كلفة[43]. لم تستطع تلك الدول أن تمنع الولايات المتحدة من شن الحرب، ولكنها جعلتها أبهظ كلفة بالتأكيد بحرمانها لأميركا من شرعية قرار آخر من مجلس الأمن.

ولم يقتصر التوازن الناعم على ساحة الأمم المتحدة. ففي خارجها، ساعدت الدبلوماسيةُ وحركاتُ السلم على تحويل المناقشة العالمية من خطايا صدام إلى التهديد الذي تمثله الإمبراطورية الأميركية، وبذلك صار من الصعب على البلدان المتحالفة مع أميركا أن تقدم لها القواعد والدعم، مما أدى إلى الانتقاص من القوة الأميركية الصلبة. وكما لوحظ آنفاً، فقد كان من الأمثلة على ذلك رفض البرلمان التركي السماح بنقل قوات برية أميركية عبر الأراضي التركية، وتمنع العربية السعودية عن السماح باستخدام القواعد الأميركية الجوية التي كانت متاحة في عام 1991.

وبما أن الإبراز العالمي للقوة العسكرية الأميركية في المستقبل سوف يتطلب حقوق الوصول والتحليق في أجواء البلدان الأخرى فإن مثل هذا التوازن الناعم يمكن أن تكون له تأثيرات حقيقية على القوة الصلبة. وعندما يصبح الدعم لأميركا سبباً جدياً خطيراً لفقدان الأصوات، فحتى الزعماء الصديقون للولايات المتحدة يتناقص احتمال تلبيتهم لطلباتنا. وبالإضافة إلى ذلك فإن تخطّي الأمم المتحدة قد زاد التكاليف التي تحملتها أميركا بعد الحرب، مما جعل كاتب العمود الصحفي فريد زكريا يلاحظ أن الأسلوب الإمبراطوري في السياسة الخارجية راح يعطي نتائج عكسية. ففي نهاية الحرب على العراق رفضت الإدارةُ بازدراء أيٍّ نوع من الشراكة الأصلية الحقيقية مع العالم. وراحت تضربُ الأممَ المتحدةَ تكراراً بلا كلل"[44].

وفي صيف عام 2003، قالت التقديرات بأن مقاومة أميركا الأولية لأي دور للأمم المتحدة في إعادة إعمار العراق قد كلفتها أكثر من مئة مليون دولار، أي حوالي ألف دولار، أي حوالي ألف دولار لكل بيت عائلي أميركي. وفي معظم مهمات حفظ السلام الكبرى، تدفع الولايات المتحدة غالبية النفقات نيابة عن البلدان التي تسهم في ذلك بقواتها. وفي حرب الخليج الأولى عام 1991 دفع الائتلاف الواسع الذي جمعه الرئيس جورج هـ بوش الأب ثمانين بالمئة من التكاليف، وأثناء تدخلات كلينتون في الخارج لم تتحمل الولايات المتحدة سوى 15 بالمئة من تكاليف إعادة الإعمار وحفظ السلام[45]. ولكن بدون تكليف من الأمم المتحدة، فإن بعض البلدان قد رفضت المشاركةَ في حفظ السلام في العراق. أما بالنسبة للبلدان التي قبلت ذلك - مثل بولندا، وأوكرانيا، ونيكاراغوا، والسلفادور، وهندوراس وغيرها، فقد قالت التقديرات إن أميركا سيتعين عليها أن تنفق 250 مليون دولار لتغطية تكاليف مشاركتها[46].

ولقد جادل بعض المحافظين الجدد بأن الحلّ هو تجنب الأمم المتحدة وإنكار شرعيتها. وبالنسبة لبعضهم الآخر، كانت إعاقة الأمم المتحدة مكسباً[47] فقد اعتبروا الحرب على العراق ضرباً لعصفورين بحجر واحد: أي إزاحة صدام، والإضرار بالأمم المتحدة. بل إن بعضهم قد حثَّ على إقامة تحالف من الديمقراطيات ليحل محل الأمم المتحدة. ولكن مثل هذه الردود تتجاهل حقيقة أن الانقسامات المهمة كانت بين الديمقراطيات، وإن الولايات المتحدة إذا كانت تستطيع أن تؤثر على الآراء الدولية في شرعية الأمم المتحدة، فإنها لا تستطيع وحدها أن تبتَّ في هذه الشرعية. وعلاوة على ذلك، فإن التوازن الناعم الذي يضغط على البرلمانات في الديمقراطيات يمكن توجيهه خارج نطاق الأمم المتحدة. فقد سمحت الإنترنت للاحتجاجات أن تحتشد وتعبأ بسرعة على أيدي جماعات حرة الحركة وغير منظمة وليس على أيدي منظمات ذات تسلسل هرمي. ففي فترة حرب فيتنام، كان التخطيط لاحتجاجٍ مّا يتطلب أشهراً من إعداد الكراسات، والملصقات، والمكالمات الهاتفية. وقد استغرق الأمر أربعة أعوام قبل أن يتضخم حجم التجمعات الاحتجاجية من خمسة وعشرين ألفاً في بادئ الأمر حتى وصل إلى نصف مليون في عام 1969. وعلى عكس ذلك فقد احتشد ثمان مئة ألف شخص في الولايات المتحدة، ومليون ونصف مليون شخص في أوروبا في إحدى عطلات نهاية الأسبوع في شباط/ فبراير عام 2003 قبل بدء الحرب[48].

صحيح أن الاحتجاجات قد لا تمثل "الأسرة الدولية"، ولكنها كثيراً ما تؤثر فعلاً على مواقف كُتّاب الافتتاحيات، والبرلمانيين وغيرهم من ذوي النفوذ المؤثر في بلدان مهمة تتلخص آراؤها في تلك العبارة الغامضة[49]. ورغم أن مفهوم الأسرة الدولية قد لا يكون دقيقاً، فحتى

الذين رفضوا المخاوف الدولية حول كيفية دخول أميركا الحرب يبدو أنهم يلجؤون إلى مثل هذا الرأي عندما يجادلون بأن شرعية الأعمال الأميركية الناعمة سيتم قبولها بعد وقوع الواقعة إذا أنتجنا عراقاً أفضل. ومثل هذه الشرعنة اللاحقة قد تساعد على استعادة القوة الأميركية الناعمة التي فقدت عند دخول أميركا الحرب، ولكنها تُظْهِرُ أن الشرعية لها أهمية. وفي الحالتين الصعبتين لكل من إيران وكوريا الشمالية، فإن من الجدير بالملاحظة أن الرئيس بوش قد لجأ إلى الاستشهاد بآراء الأسرة الدولية التي نبذها بعض مستشاريه باعتبارها "وهمية"[(50)]. إن الصراع المتواصل من أجل الشرعية يبين أهمية القوة الناعمة. فالأخلاق يمكن أن تكون حقيقة من حقائق القوة.

ولقد كان الأثر الأولي لغزو العراق على الرأي العام في العالم الإسلامي سلبياً تماماً. فتلفزيون الجزيرة (مورد القوة الناعمة لحكومة قطر نفسها التي قدمت المقر العام للقوة الأميركية الصلبة) راح يعرض صوراً داميةً للضحايا المدنيين ليلة بعد ليلة. ولاحظ برلماني مصري: "إنك لا تستطيع أن تتصور كم تستفز مشاعرَ الناس هذه الضرباتُ العسكريةُ لبغداد والمدن الأخرى كل ليلة"[(51)]. وفي باكستان، قال دبلوماسي سابق: "إن غزو أميركا للعراق هدية كاملة للأحزاب الإسلامية. فالناس الذين كانوا لولا ذلك سيصعّرون خدهم لتلك الأحزاب يهرعون الآن بالحملة للانضواء تحت رايتها"[(52)]. وقال المسؤولون الأميركيون عن المخابرات وتنفيذ القوانين إن القاعدة وغيرها من المجموعات الإرهابية قد كثّفت كسبها للمجندين في صفوفها على ثلاث قارات "باستغلال الغضب المتصاعد على حملة أميركا الحربية على العراق"[(53)]. وبعد الحرب، أظهرت استطلاعات الرأي ازدياداً في تأييد ابن لادن وهبوطاً في شعبية الولايات المتحدة

حتى في البلدان الصديقة لها مثل الأردن وإندونيسيا[54]. وفي تلك الأثناء أظهرت استطلاعات الرأي في أوروبا أن طريقة شن أميركا الحرب على العراق قد بددت فيض التعاطف معها والنوايا الحسنة إزاءها في أعقاب أحداث 11 أيلول/ سبتمبر. ولا يزال من السابق لأوانه معرفة ما إذا كانت مكاسب القوة الصلبة من الحرب على العراق ستزيد في المدى الطويل على خسائر القوة الناعمة، أو مدى ديمومة هذه الأخيرة. ولكن الحرب قد قدمت حالة ساحرة لدراسة التفاعل بين هذين النوعين من القوة.

وعند النظر إلى المستقبل، فإن أشياء كثيرة ستعتمد على فاعلية السياسات الأميركية في خلق عراق أفضل، وتحريك عملية سلام الشرق الأوسط إلى الأمام. وبالإضافة إلى ذلك فإن أشياء كثيرة ستعتمد على ما إذا كانت حالات الفشل والمبالغة السياسية في أدلة المخابرات ستترك آثراً ضاراً مستديماً على مصداقية الحكومة الأميركية عندما تقترب من بلدان أخرى تطلب مساعدتها في حالات مثل إيران وكوريا الشمالية، وكذلك في الحرب على الإرهاب. وكما لاحظت مجلة **الإيكونوميست** الأسبوعية البريطانية: "لقد أخطأ الجواسيسُ، وبالغَ الساسةُ... وكانت الحرب، كما نعتقد، مبررة. ولكن السيد بوش والسيد بلير في دفاعهما عنها واحتجاجهما لها، لم يكونا نزيهين مستقيمين مع شعبيهما"[55].

ويجادل المتشككون بأنه ما دامت البلدان تتعاون من أجل مصلحتها الخاصة، فإن فقدان القوة الناعمة لا يهم كثيراً. ولكن هؤلاء المتشككين يتجاهلون كون التعاون هو مسألة درجة، وإن تلك الدرجة تتأثر بالانجذاب أو النفور. كما يتجاهلون حقيقة أن التأثيرات على الفاعلين من غير الدول وعلى تجنيد المتطوعين للمنظمات الإرهابية لا تعتمد

على المواقف الحكومية. ففي عام 2002، قبل وقت طويل من الحرب على العراق، كانت ردود الفعل على السياسات الأميركية الغليظة الثقيلة الوطأة في شبه الجزيرة الكورية قد أدت إلى هبوط حاد ومفاجئ على مدى أعوام ثلاثة قبل ذلك في نسبة الكوريين المؤيدين للتحالف مع أميركا من 89٪ إلى 56٪ فقط(56). وهذا سوف يعقّد معالجةَ الحالة مع كوريا الشمالية. وسواء في الشرق الأوسط أم في آسيا الشرقية فإن القوتين الناعمة والصلبة متشابكتان بشكل يصعب تفكيكه في عالم اليوم.

القوة في عصر المعلومات المعولم

إن الجانب الملموس والقسري في القوة فيما بين الديمقراطيات المتقدمة أقل بروزاً مما كان عليه في الماضي. وفي الوقت نفسه، فإن جزءاً كبيراً من العالم لا يتكون من ديمقراطيات متقدمة. وهذا يحدّ من التحول العالمي للقوة. وعلى سبيل المثال، فإن معظم بلدان إفريقيا والشرق الأوسط لها اقتصاد زراعي يعيش فترة ما قبل التصنيع، ومؤسستها ضعيفة، وحكامها مستبدون. والدول الفاشلة مثل الصومال، والكونغو، وسيراليون، وليبيريا تقدم أماكن للعنف. وبعض البلدان الكبيرة كالصين والهند والبرازيل تقوم بالتصنيع وقد تعاوني بعض الاضطرابات التي واجهتها أجزاء شبيهة بها في الغرب في مراحل نظيرة لها من مراحل تطورها وتنميتها في أوائل القرن العشرين(57). وفي مثل هذا العالم المتنوع، فإن موارد القوة الثلاثة كلها - العسكرية، والاقتصادية والناعمة - تظل ذات صلة، ولو بدرجات مختلفة في علاقات مختلفة. غير أنه إذا استمرت الاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية الحالية للثورة المعلوماتية، فستصبح القوة الناعمة ذات أهمية في هذا المزيج.

إن ثورة المعلومات وعولمة الاقتصاد آخذة في تحويل العالم وتقليصه. فقد وسعت هاتان القوتان قوة أميركا في بداية القرن الحادي والعشرين. ولكن مع مرور الزمن سوف تنتشر التكنولوجيا إلى بلدان وشعوب أخرى، وسوف يتضاءل تفوق أميركا النسبيّ فالأميركيون اليوم يمثلون واحداً على عشرين من مجموع سكان العالم، ولكن نصف مستخدمي الانترنيت في العالم تقريباً. وبالرغم من أن الإنكليزية قد تبقى هي اللغة المشتركة، كما بقيت اللاتينية كذلك بعد انحسار جبروت روما، فإنه عند نقطة مّا في المستقبل، وربما في غضون عقد أو عقدين قد تبرز أسرة علمٍ الضبط والاقتصاد الرقمي الحاسوبي بشكل أكبر من مثيلتها الأميركية. والأهم حتى من ذلك هو أن ثورة المعلومات تخلق أُسَراً افتراضية وشبكات عابرة للحدود القومية. وستلعب الشركات عابرة القومية والفاعلون غير الحكوميين (بما فيهم الإرهابيون) أدواراً كبيرة. وسيكون لكثير من هذه المنظمات قوتها

	أنماط السلوك	العملات الرئيسية	السياسات الحكومية
القوة العسكرية	الإرغام الردع الحماية	القوة العسكرية القوة	الدبلوماسية القسرية الحرب التحالف
القوة الاقتصادية	الإغواء الإرغام	الرشاوى العقوبات	المساعدة الرشاوى العقوبات
القوة الناعمة	الجاذبية وضع جدول الأعمال	القيم الثقافة السياسات المؤسسات	الدبلوماسية العامة الدبلوماسية الثنائية والمتعددة الأطراف

أنماط القوة الثلاثة

الناعمة الخاصة بها عندما تجتذب المواطنين إلى ائتلافات عابرة للحدود الوطنية. وعندئذ تصبح السياسة تنافساً على الجاذبية، والشرعية، والمصداقية. وتصبح القدرة على تقاسم المعلومات، وعلى كسب تصديق الآخرين مورداً مهماً من موارد الجذب والقوة.

وتشير هذه اللعبة السياسية في عصر المعلومات المعولمة إلى أن الأهمية النسبية للقوة الناعمة سوف تزداد. أما البلدان التي يحتمل أن تصير أكثر جذباً وأن تكسب قوة ناعمة في عصر المعلومات فهي تملك قنوات اتصال متعددة تساعد على تأطير القضايا؛ والتي تكون ثقافتها المسيطرة وأفكارها أقرب إلى المقاييس أو الأعراف العالمية السائدة (التي تركّز الآن على الليبرالية، والنزعة الجماعية، والاستقلال الذاتي، والتي تتسع مصداقيتها بفعل قيمها وسياساتها المحلية والدولية. وتشير هذه الشروط إلى فرص للولايات المتحدة، ولكن أيضاً لأوروبا وغيرها، كما سنرى في الفصل الثالث.

إن القوة الناعمة الآخذة في اكتساب أهمية أكثر في عصر المعلومات هي في جزء منها ناتج عرضيّ اجتماعي واقتصادي أكثر منها نتيجة للعمل الحكومي الرسمي وحده. فالمؤسسات غير الهادفة للربح وذات القوة الناعمة الخاصة بها يمكنها أن تعقد وتعرقل الجهود الحكومية. كما المجهزين التجاريين للثقافة الشعبية يمكنهم أن يعيقوا الحكومة، وكذلك أن يساعدوها على تحقيق أغراضها. ولكن الاتجاهات الأوسع والأطول أمداً يمكن أن تساعد الولايات المتحدة إذا تعلمت استخدامها بصورة جيدة. وبقدر تمشي السياسات الرسمية في الداخل والخارج مع الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والانفتاح، واحترام آراء الآخرين، ستستفيد أميركا من اتجاهات عصر المعلومات المعولمة هذا. ولكن هناك خطر طمس أميركا للرسالة الأعمق لقيمها من خلال

الغطرسة. وكما سنرى في الفصل التالي فإن ثقافة أميركا العليا والدنيا لا تزال تساعد على إنتاج قوة ناعمة في عصر المعلومات. ولكن أعمال الحكومة وإجراءاتها لها أهميتها أيضا، ليس فقط عن طريق برامج مثل صوت أميركا ومنحة فولبرايت الدراسية، ولكن عن طريق ما هو أهم حتى من ذلك، عندما تجتذب السياساتُ الغطرسةَ، وتمثل القيم التي يعجب بها الآخرون. الاتجاهات الأكبر في عصر المعلومات هي في مصلحة أميركا، ولكن فقط إذا تعلمنا أن نتوقف عن وطء أفضل رسالة لنا تحت أقادمنا. فالقوة الذكية تعني أن نتعلم بطريقة أفضل كيف نجمع بين قوتنا، الصلبة والناعمة.